استراحة المسافر (١٠)

* تغدَّى رجلٌ اسمه أبوالسَّرايا عند سليمان بن عبدالملك وهو يومئذٍ وليُّ عهد، وأمامه جَديٌ (تيس) فقال له سليمان كل من كِلْيتيه فإنها تزيد في الدماغ فقال: لو كان هذا مثل ما تقول لكان رأسُ الأمير مثل رأس البغل.
* قال الحافظ: قال أبوكعب كنَّا عند عيّاش بن القاسم ومعنا سَيْنَويه القاصّ فجاؤنا بفالوذجة حارّة، فابتلع منها سَيْنَويه لقمة فغُشي عليه من شدَّة حرّها فلما أفاق قال: لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحُرقة مثل ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة.
* قال رجلٌ لرجل: بكم تبيع الشاة؟ قال: أخذتُها بستة وهي تُساوي سبعة وقد أعطيت بها ثمانية، فإن كانت حاجتُك إليها بتسعة فادفع لي عشرة وخذها.
* جاء رجلٌ إلى الأعمش فقال: يا أبامحمد: اكتريت حماراً بنصف درهم وأتيتك لأسألك عن حديث كذا وكذا، فقال له: اكتر بالنصف الآخر وارجع.
* دخل أبوعلقمة ـ وكان من المتقعِّرين والمتشدقين في الكلام ـ دخل على أعْيَن الطبيب فقال له: أمْتَعَ الله بك، إني أكلت من لحوم هذه الجَوَازِلِ فطَسِئْتُ طَسْأةً، فأصابني وَجَعٌ ما بين الوَابِلَة إلى دَأْيَة العُنقُ فلم يزل يَربُو ويَنْمي حتى خالط الحِلْبَ والشَّراسِيفَ، فهل عندك دَوَاءٌ؟ فقال أَعْيَن: نعم، خذ خَرْبَقاً وشلفقاً وشِبْرِقاً فَزهْزِقْهُ وزَقْزِقه واغْسِلْه

بماء رَوْثٍ واشربْه؛ فقال أبوعَلْقمة: لم أفهمْ عنك؛ فقال أعيْن: أفهمتُك كما أفهمتَني. وقال له يوماً آخَرَ: إني أجِد مَعْمَعةً في بطني وقَرْقرةً؛ فقال له: أما المعمعةُ فلا أَعرِفها، وأما القرقرةُ فهي ضُراطٌ لم يَنْضَج.

الجوازل: فراخ الحمام. طسيء: أتخم من الطعام. الوابلة: طرف العضد في الكتف. الدأية: فقرة العنق. الخلب: حجاب بين القلب وسواد البطن. الشراسيف: جمع شُرسوف وهو رأس الضلع مما يلي البطن. الخربق: ضربٌ من الأدوية ونبت كالسُّم يغشى على آكله ولا يقتله. الشبرق: نبت من جنس الشوك إذا كان رطباً فهو شبرق فإذا يبس فهو الضريع.

* قال الأصمعي: رأيت أعرابياً ماسكاً بستار الكعبة وهو يقول: اللهم أمِتْني ميتة أبي خارجة!

فقلت له: يرحمك الله، وكيف مات أبوخارجة؟

قال: أكل حتى امتلأ، وشربَ، ونام في الشمس، فمات شبعان ريّان دفيان.

مداعبة شعرية :

داعب «محمود غنيم» صديقاً له شاعراً، سُرقت محفظتُه فقال في ذلك :

هوِّنْ عليْكَ وجفِّفْ دَمْعَكَ الغَالِي ... لا يَجْمعُ الله بينَ الشعرِ والمالِ
مِنْ أينَ أصْبَحْتَ ذَا مالٍ فَتَسْلَبَهُ ... ياأشْبَهَ الناسِ بي في رقَّةِ الحالِ
فَيالَها صرَّةً من جَيبِكَ انطَلَقَتْ ... وأنتَ أحوجُ مَخْلوقٍ لمثقالِ
عوِّذْ نقودَكَ واعقِدْ حولَهَا عُقَداً ... وثيقةً تتحدَّى كلَّ حلالِ
قالُوا: خَلَتْ يَدُهُ من كلِّ ما مَلَكَتْ ... فَقُلْتُ: بل رأسُهُ من عقلهِ خالِ
يا لَيتَ شعريَ ماذا أنتَ صانِعُهِ ... أتزمعُ الصومَ حتَّى شهرِكَ التالي
أقسَمْتُ ما سَلَبَتْ تلكَ النقودَ يدٌ ... لكنَّها أبقَتْ من جيبِكَ البالي
الذِئبُ لا يشتهي لحمَ ابنِ جلدتِهِ ... فكيفَ أُوقعَ نشَّالٌ بنشَّالِ

من أخبار المسافرين (٣٥) مسافر يطوي الأرض ليتوب إلى ربّه

وإليك أخي المسافر قصة مما يَرْويه الصادق المصدوق ﷺ:

«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» [متفق عليه]

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها». وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له». وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

السفر الأخير

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أوالغبارُ يخاف الشَّين والشعثا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاسته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدَثَا
في قعر مظلمة غبراء موحشة ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا
تجهَّزي بجهازٍ تبلغين به ... يا نفس قبل الردَّى لم تُخلقي عبثا

مهما كانت مشقة السفر، ومعاناة الطريق، وقطع الفيافي، وآلام الغربة، ومصارعة المخاطر، وسهر العيون، ومهما كانت لوعة الفراق ووحشة الغياب، وصعوبة الوداع، فإنَّ أصعب من ذلك كله، وأشدّ منه خطرًا، وأعظم منه حسرة، وأكثر منه هولاً، وأمرّ منه فجيعة، هو السفر الأخير الذي لا رجعة بعده، ولا لقاء معه، ولا عودة منه، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

حكم المنية في البرية جارِ ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
جُبلتْ على كدرٍ وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذار والأكدار
فاقضوا مآربكم عجالاً إنما ... أعماركم سفرٌ من الأسفار

إنَّ أسفارنا الدنيوية مهما آلمنا بعدها، وتجرعنا وعثاءها، واحتسينا عناءها، تهون مع ذٰلك السفر الرهيب، وتسهل مع تلك الرحلة المضْنِيَة.

ياساهيًا لاهيًا عما يراد به ... آن الرحيل وما قدَّمتَ من زاد
نرجو البقاء صحيحًا سالمًا أبدًا هيهات أنت غدًا فيمن غدا غاد

الحبيب متىٰ ودَّع حبيبه، والأليف متى فارق أليفه، والأنيس متىٰ افتقد

أنيسه، والصديق متى بكىٰ فراق صديقه، فإن حرارة الوداع، ومرارة الفراق يكون معها أمل العودة، والطمع في اللقاء مرة أخرى، مما يهوّن حرارتها، ويحلي مرارتها، لكن السفر الأخير لا أمل في اللقاء ـ في هذه الدار ـ بعده، ولا طمع في الوصال إثره.

والحقيقة أخي المسافر أن هذه الحياة بمجموعها عبارة عن سفرٍ وأيّ سفر.

لعمرك ما حيٌّ وإن طال سيره ... يُعدُّ طليقاً والمنون له أسرُ
وما هذه الأيام إلاَّ منازلٌ ... يحلُّ بها سفْرٌ ويتركها سَفْرُ
فلا تحسبن المرءَ فيها بخالدٍ ... ولكنه يسعىٰ وغايته العمرُ

إنها رحلة شاقة مضنية مليئة بالمخاطر، ومحفوفة بالمكاره، ومزروعة بالمصائب. إنها رحلة ابتلاء وامتحان. فالمسافر الناجح هو الذي يستطيع أن يَعْبُر بنفسه إلى شاطئ الأمان في ثقة وثبات وهمة وشموخ، وما ذلك إلاَّ بتزوّد المسافر بالزاد الحقيقي لهذه الرحلة وما هو يا ترى؟ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أعدَّ زاديك من قولٍ ومن عملٍ ... إن المقام إذا طال اقتضىٰ السَّفرا

* * *

فيا تائهاً بوادي الهوى، انزل ساعةً بوادي الفكر، يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، والموقف رهيب، والمطلع مهيب:

حتى متى تسقي النفوسَ بكأسها ... ريبُ المنون وأنت لاهٍ ترتعُ
أفقد رضيتَ بأن تعلل بالمنىٰ ... وإلى المنية كل يوم تدفعُ
أحلام نوم أو كظلٍّ زائلٍ ... إن اللبيب بمثلها لا يخدعُ

فَتَـزَوَّدنَّ ليـوم فقـرك واجتهـد واجمع لنفسك لا لغيركِ تجمعُ

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

«الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ ترحالهم إلاَّ في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبنيٌّ على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذةٌ وراحة، وإنما ذلك بعد انتهاء السفر»اهـ.

لئن كان كثير من الشعراء والأدباء بكوا من آلام السفر وتبرموا من لحظات الوداع وشنعوا على يوم الفراق فإن هنالك كثيراً من الشعراء والأدباء والعلماء والحكماء بكوا هذا السفر الأخير وشكو من لوعة الفراق المرير، وخافوا هول المطلع على العزيز القدير، يقول البارودي:

متى يشتفي هذا الفؤاد المُفَجّعُ وفي كل يوم راحلٌ ليس يرجعُ
نميل من الدنيا إلى ظل مزنة لهـا بـارقٌ فيـه المنيـة تلمـعُ
وكيف يطيب العيش والمرء قائمٌ على حذرٍ من هول ما يتوقعُ
بنـا كـلَّ يـوم للحـوادث وقعـةٌ تسيـل لهـا منَّـا نفـوسٌ وأدمـعُ
فأجسادنا في مطرح الأرض هُمَّدٌ وأرواحنا في مسرح الجوِّ رُتَّعُ
ومن عجبٍ أنا نُساءُ ونرتضي ونـدرك أسبـاب الفنـاء ونطمـعُ
تسير بنا الأيام والموت موعدٌ وتدفعنا الأرحام والأرض تبلعُ
عفاءٌ على الدنيا فما لعِداتِها وفـاءٌ ولا فـي عيشهـا مُتَمَتَّـعُ

وقال آخر:

وشيب رأسي قبل حين مشيبه رعـود المنـايـا بيننـا وبـروقُهـا
رأيـت المنـايـا بـاديـاتٍ وعُـوَّداً إلى دارنا سهلاً إليها طريقُها

وقد قُسِّمتْ نفسي فريقين، منهما فريق مع الموتى، وعندي فريقها
فبينا ترجِّي النفس ما هو نازح من الأمر لاقت دونها ما يعوقها
وبينا تقول النفس أفعل في غد كذا وكذا فاستعلقته علوقها

خَطَبَ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه بالكوفة، فقال في كلام له:

سُبحَانَكَ خالقاً معبوداً بحُسْنِ بلائِكَ في خلقك، خلقت داراً، وجعلت مأدبة ومطعماً ومشرباً، وأزواجاً وقصوراً، وخدماً وعيوناً وأنهاراً، ثم أرسلت داعياً إلينا، فلا الداعي أجبنا، ولا فيما رغَّبتنا رغِبنا، أقبلنا على جيفة نأكل منها، قد زاد بعضنا على بعض حرصاً عليها، وافتُضحْنا لما اصطَلَحْنا على حُبِّها، عَمِيَت أبصارُ صالحينا وفقهائنا فيها، ولها من في قلبهِ مرض، فهو ينظر بعين غير صحيحة، ويسمع بأذنٍ غير سميعة، وقد ملكت الشهوات عقله، وأماتت الدنيا قلبه، وذهلت عليها نفسه، فهو عبدُها وعبدُ من في يديه منها شيء، حيثما زالت زال معها، وحيثما أقبلت أقبل إليها، لا يعقل ولا يسمع، ولا يزدجر من الله بزاجر، ولا يتعظ من الله بواعظ. قد رأى المأخوذين على الغرّة حيث لا إقالة ولا رجعة كيف فاجأتهم تلك الأمور، ونزل بهم ما كانوا يوعدون، وفارقوا الدور، وصاروا إلى القبور، ولقُوا دواهي تلك الأمور، فإذا نزلت بقلوبهم حسراتُ أنفسهم، اجتمعت عليهم خصلتان، حسرة الفوت، وسكرة الموت، تفَطَّرت لها قلوبهم، وتغَيَّرت ألوانُهُم، وتردد شهيقهم، وحرَّكوا لمخرج أرواحهم أيديهم وأرجُلَهم، فعرقت لذلك جباهُهُم، ثم ازدادَ الموتُ فيهم، فحيلَ بين أحدهم ومنطقه، وإنه لبين ظهراني قومه، ففكَّر

بعقلٍ بقي له: فيم فنى عُمُره، وفيم ذهبتْ أيامُه!!. اهـ.

فيا إخواني المسافرين على مطايا الأيام، لماذا تأخّرْنا وقد سار الركب، وتقهقرنا وقد جَدّ الخطب، يا مسافرين، مَنْ عزم السفر تزوَّد له، ويا راحلين من نوى الرحيل استعد له. ليت المحترز نجا فكيف المهمل، يا أقدام الصبر تحملي فقد بقي القليل، تذكَّري حلاوة الدَّعة، يَهُن عليك تعب السّرى، ومشقة الطريق.

قل للمؤمل إن الموتَ في أثرِكْ ... وليس يخفى عليك الأمر من نظرِكْ
فيمن مضى لك إن فكرت مُعْتَبر ... ومن يَمُت كل يوم فهو من نذركْ
دار تسافر عنها من غد سفراً ... فلا تؤوب إذا سافرت من سفركْ
تضحي غداً سمراً للذاكرين كما ... صارالذين مضوابالأمس من سمركْ

فيا مستأنساً بظلٍّ، وحريصاً على الهوى والموت عليه يحرص، تفكَّر فيمن أصبح مسروراً فأمسى وهو منغَّص، ولا يغرنَّك طول الأمل، ولا فسحة الأجل ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن

﴿رَبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٤٨ـ٥٨].

وهذا أبوالعتاهية ـ رحمه الله ـ يُذكِّر نفسه ويُذكرنا بحقيقة الحياة ووجوب تزود الإنسان ليوم الرحيل وأن لا يغترّ بطول الأمل:

المرء في تأخيرِ مدَّته ... كالثوب يخلق بعد جدَّته
وحياتُه نفسٌ يُعَدُّ له ... ووفاته استكمالُ عدَّتِهِ
ومصيره من بعد أُنسَتِه ... بالناس ظُلْمَةُ بيتِ وَحْدَتِهِ
من ماتَ مال ذوُو مودَّتِه ... عَنْه وحالوا عن مودَّته
عَجَباً لمحتجبٍ يُضيع ما ... يحتاجُ فيه ليوم رَقْدَتِهِ
أزِفَ الرحيلُ ونحنُ في لعبٍ ... لا نستعدُّ لهُ بعُدَّتِهِ
ولقلَّما تُبقي الخُطوبُ على ... أشَرِ الشَّبابِ وحَرّ وَقْدَتِهِ

* * *

إني أرِقْتُ وذكرُ الموتِ أرَّقني ... فقلتُ للدمع: أسْعدني فأسعدني
إن لم أُبَكِّ لنفسي مشعراً حزناً ... قبل الممات ولم آسف لها فمن
يا من يموتُ ولم تُحْزنْه موتَتُه ... ومن يموتُ فما أولاه بالحَزَن
لمن أثْمِّرُ أموالي وأجمعُها ... لمن أروح لمن أغدو لمن لِمَن
لمن سَيَرْفَعُ بي نعشي ويتركني ... في حفرتي ترب الخدين والذقنِ

وقال الآخر:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له ... من الله في دار القرار نصيب
فإن تُعْجِب الدنيا أناساً فإنها ... متاع قليلٌ والزوالُ قريب

وقال الآخر:

أين أهلُ الديار من قوم نوحٍ ثم عادٌ من بعدهم وثمودُ
أيـن آبـاؤنـا وأيـن بنـوهـم أين آباؤهم وأين الجدودُ
سلكوا منهج المنايا فبادوا وأرانا قد حان منا ورودُ
بينما هم على الأسرة والأنـ ـماط أفضت إلى التراب الخدود
ثم لم ينقض الحديث ولكن بعد ذاك الوعيدُ والموعودُ

مرَّ الإسكندر بمدينة قد ملكها أملاكٌ سبعة وبادوا، فقال: هل بقي من نَسْلِ الأملاكِ الذين ملكوا هذه المدينة أحد؟ قالوا: نعم، رجل يكونُ في المقابر. فدعا به فقال: ما دعاك إلى لزوم المقابر؟ قال: أردت أن أعزلَ عظامَ الملوك عن عظام عبيدهم فوجدتُ عظامهم وعظامَ عبيدهم سواء. قال له: فهل لك أن تتبعني فأحيي بك شرف آبائك إن كانت لك همة؟ قال: إن همَّتي عظيمةٌ إن كانت بُغْيتي عندك، قال: وما تبغي؟ قال: حياةٌ لا موتَ فيها، وشبابٌ ليس معه هرم، وغنىً لا فقر بعده، وسرور بغير مكروه، قال: لا، قال: فامضِ لشأنك ودعني أطلب ذلك ممن هو عنده ويملكه. قال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت.

باحت بسري في الهوى أدمعي ودلت الواشي على موضعي
يا قوم إن كنتم على مذهبي في الوجد والحزن فنوحوا معي
يحـق لـي أبكـي علـى زلتـي فـلا تلـومـونـي علـى أدمعـي

* * *

أخي المسافر، إذا صابرت مشقة الطريق انتهى بك السفر إلى جنات ونهر، عند مليك مقتدر.

كان آدم عليه السلام يبكي بعد هبوطه من الجنة بكاءً مريراً فكان جبريل يأتيه فيقول لِمَ هذا البكاء؟ ولسان حاله يجيب:

يا عاذل المشتاق دعه فإنه ... يلوي على الزفرات غيرَ مشاكا
لو كان قلبك قلبُهُ ما لُمتَه ... حاشاك مما عنده حاشاكا

يا جبريل ما تغيّر عليك أمر، وأنا نقلت من برد عيش إلى حر ما سكنت قط مسكني، ولا توطنت موطني، فاقرأ على ربعي سلامي، وقل له لا تنس أيامي.

أخي المسافر، يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة، وكتابه قد حوى حتى قدر خردلة، ماذا أعددت لسفرك الطويل، وما هو زادك للرحيل.

تبني وتجمع والآثار تندرس ... وتأمل اللبث والأرواح تختلسُ
ذا اللب فكرفما في الخلد من طمع ... لابد ما ينتهي أمر وينعكسُ
أين الملوك وأبناء الملوك ومن ... كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا
ومن سيوفهم في كل معترك ... تخشى ودونهم الحجاب والحرس
أضحوا بمهلكة في وسط معركة ... موتى وماشي الورى من فوقهم يطس
وعمهم حدث أو ضمهم جدث ... باتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا
كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا ... ومات ذكرهم بين الورى ونسوا
والله لو نظرت عيناك ما صنعتْ ... يد البلى بهمُ والدود يفترس
من أوجه ناضرات حار ناظرها ... في رونق الحسن منها كيف تنطمس
وأعظم باليات ما بها رمق ... وليس تبقى لهذا وهي تنتهس
وألسنٌ ناطقات زانها أدب ... ما شانها شانها بالآفة الخرس

عروا عن الوشي لما ألبسوا حللاً من الرغام على أجسادهم وكسوا
حَتَّام يا ذا النهى لا ترعوي سفهاً ودمع عينك لا يهمي وينبجس

قال ابن الجوزي رحمه الله: «إخواني خلقنا نتقلب في ستة أسفار إلى أن يستقر بنا المنزل: السفر الأول سفر السلالة من الطين، والثاني سفر النطفة من الصلب، والثالث سفر من البطون إلى الدنيا، والرابع من الدنيا إلى القبور، والخامس من القبور إلى العرض، والسادس إلى منزل الإقامة إما إلى الجنة أو إلى النار. وقد قطعنا نصف الطريق وما بعدُ أصعب».

يا ويحَ نفسي من تتابع حوبتي لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحك واحذري حذراً يهيج عبرتي ونحيبي
واستدركي ما فات منك وسابقي سطوات موت للنفوس طلوب
هذا رقيب ليس عني غافلاً يحصي علي ولو غفلت ذنوبي
أوليس من جهل بأني نائم نوم السفيه وما ينام رقيبي

* * *

خطبة مسافر إلى الآخرة

عن أبي سليم الهُذلي قال: خطب عمر بن عبدالعزيز فقال:

أما بعد، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يدع شيئاً من أمركم سُدىً، وإن لكم مَعاداً فخاب وخسر من خرج من رحمة الله وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واشترى قليلاً بكثير وفانياً بباق وخوفاً بأمن، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلُفها بعدكم الباقون؟ كذلك حتى تُردّ إلى خير الوارثين، في كل يوم وليلة تشّيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبَه وانقضى أجلَه حتى تغيّبوه في صَدْع من الأرض، في بطن صَدْع، ثم تدعونه غير ممهَّد ولا موسَّد قد خَلع الأسبابَ وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب مرتَهناً بعمله فقيراً إلى ما قدَّم، غنيًّا عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت، وايْمُ الله إني لأقولُ لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب ما أعلم عندي، وما يبلغني عن أحد منكم ما يسعَه ما عندي إلاَّ ودِدْتُ أنه يمكنني تغييره حتى يستوي عيشُنا وعيشه، وايْم الله لو أردت غير ذلك من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلَولاً عالماً بأسبابه، ولكن سبَق من الله عز وجل في كتاب ناطق وسُنَّة عادلة دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته.

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وشهقَ وبكى الناس، وكانت آخر خطبةٍ خطبها.